الدكتور شبلي شميل

في اليوم الاول من هذه السنة الميلادية سنة (١٩١٧) اغتالت المنية الطبيب النطاسي، الحكيم الاجتماعي، العالم الطبيعي، الاديب الكاتب، الناظم الناثر، الدكتور شبلي شميل الشهير بتصانيفه ومقالاته العلمية والاجتماعية في المجلات والجرائد العربية والفرنسية

كان شبلي فذا نادر المثل في مجموعة علومه واعماله وأفكاره وأخلاقه والذي يحملنا على ترجمته انه كان من طلاب الاصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين — وقليل ماهم — لامن الذين اتخذوا العلم ذريعة لجمع المال ولا وسيلة للجاه كما هو شأن السواد الاعظم من المتعلمين، فهو لم يدخر مالا ولم يتأثل عقارا، ولم يصرف جل أوقاته للكسب، بل كان اشتغاله بالامور الاجتماعية أكثر من اشتغاله بالطب، ومثل هذا يكون مؤثرا في أهل جيله تأثيرا نافعا أو ضارا لا كالذين يعدون من العلماء بورقة شهادة يحملها كل منهم بيده ونرى أنه يعيش عمرا طويلا ثم يموت كما يموت العصفور لايترك أثرا في جيله ينسب اليه. لهذا نذكر عن هذا الرجل أهم مانرى فيه العبرة من ترجمته فنقول:

كان أول من نشر مذهب داروين باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه اذ كان رجال الدين ولا سيما الكاثوليك الذين نشأ شميل على مذهبهم يعدون هذا المذهب من دعائم الكفر، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولا وكتابة بالتعطيل والالحاد، ولم يتجرأ أحد قبله على ما تجرأ عليه من ذلك فيما نعلم مع كثرة الذين زاغت عقائدهم من المتعلمين على الطريقة الاوربية الحديثة. ومن الغريب أن نرى المحامين عن النصرانية وكتبها الدينية كاليسوعيين (الجزويت) لم يتصدوا للرد على الدكتور شميل كدأبهم في الرد على أمثاله من كتاب الشرق والغرب، وقد كانت مجلتهم (المشرق) واقفة بالمرصاد للمقتطف والهلال وغيرهما من الصحف المنشرة كلما نشر فيها شيء يخالف الدين أو المذهب الكاثوليكي ردوا عليه أشد الرد. فاذا كان

الجزويت لم يشنعوا على الدكتور شبلي شميل كما شنعوا على من لم يجهر بمثل ماجهر به فلا عجب اذا سكت عنه من دونهم عصبية وعناية بهذا الامر ، وأكبر ما بلغنا من مقاومة بعض القسيسين له أنهم كانوا ينهون بعض الناس سرًّا عن دعوته لمعالجة مرضاهم . وجمهور المتعلمين على الطريقة العصرية من السوريين في مصر وسورية وأمريكة يحبون الدكتور شميل ويعدونه من دعاة الاصلاح الاجتماعي المخلصين ومنهم من يغلو فيه ، أما النصارى منهم — وهم الاكثرون — فلا يرون عدم تدينه ما نعا من اصلاحه الاجتماعي اذ لا علاقة للدين بذلك عندهم ، ولا شك في كون هذا من تساهلهم الذي قاربوا به الافرنج ، وأما المسلمون فلا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعدا له عنهم لانها ليست عقيدتهم فهو في نظرهم طبيب عالم اجتماعي غير مسلم ، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم الى التساهل والانصاف لحريته واستقلال فكره . وله أصدقاء من مسلمي مصر لعلهم يزيدون على أصدقائه من مسلمي سورية الذين لا يعرفه أكثرهم الا بالسماع

وأما مذهب دارون فقد تكلم بعض علماء المسلمين فيه وفي مخالفته لظواهر النصوص في خلق آدم عليه السلام ، ولم يجعلوا ذلك ردا على الدكتور شميل لانه لم يكن صاحب المذهب . وقد سبق أشياخنا الى الرد على مذهب دارون وأول ما رأيناه في ذلك ما أبرزه لنا الاستاذ الامام في ترجمته لرسالة استاذه الحكيم السيد جمال الدين التي سماها الرد على الدهريين . ثم ما كتبه استاذي الذي تخرجت على يديه الشيخ حسين الجسر في الرسالة الحميدية فهو قد لخص هذا المذهب وبين أن دلائله في أصل البشر ظنية لم تصل الى درجة القطع ، وأنها لو ثبتت وصارت يقينية لا تكون حجة على الاسلام لامكان تأويل ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة في خلق آدم . وقد أقر أكابر علماء سورية شيخنا على تلك الرسالة وترجمت بالتركية فأقرها علماء الترك ، وكافأه السلطان عبد الحميد على خدمته للاسلام بها برتبة علمية عالية وراتب شهري . ورغب اليه ان يكون من شيوخ قصره فاعتذر وعاد الى طرابلس الشام بعد ان أقام في قصر يلدز عدة شهرا ضيفا مكرما عند السلطان . وأما علماء الازهر فقد اطلع كثير منهم على الرسالة الحميدية وأعجب بها . ولكن لم

نسمع ان أحداً منهم كتب في موضوعها شيئا

بينا رأي المسلمين الذين يعرفون الدكتور شبلي فيه وانهم كانوا يرونه أقرب الى التساهل والانصاف، وبيان ذلك انه كان يقول انه لا يوجد دين اجتماعي يتفق مع مصالح البشر المدنية الا دين القرآن. سمعت هذا منه غير مرة. وأخبرني أنه طالما خطر في باله ان يجمع ما في القرآن من الآيات الواردة في المسائل الاجتماعية والادبية ويفسرها تفسيرا علميا اجتماعيا. وانه قد حاول هذا الجمع فصعب عليه تجريد ما أراده لما في القرآن من المزج بين هذه المسائل والمسائل الروحية الاخروية. وقال لي انك أقدر مني على تجريد ما أريد فلو فعلت لكان تفسيري نافعا لك فيما تتوخاه من التوفيق بين الاسلام والعلم العصري والحضارة العصرية ومن نشر محاسن الاسلام بين الناس لان الوفا من الناس يقرؤن تفسيري ولا يقرؤن تفسيرك

وأما رأيه في نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهو انه كان يفضله على جميع البشر، وقد كتب الي منذ تسع سنين كتابا أودعه أبياتا من الشعر في ذلك : هذا نصه :

الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

أنت تنظر الى محمد كنبي فتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل واجعله أعظم . ونحن وان كنا في الاعتقاد (الدين أو المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة .

من صديقك الدكتور شميل

﴿ الحق أولى أن يقال ﴾

دع من محمد في سدى قرآنه ... ما قد تحاماه لعمة الغايات
اني وان ألفيته قد كفرت بدينه ... هل أكفرن بمحكم الآيات
أوماحوت في ناصع الالفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو انهم عقلوا بها ... ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه ... رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدها ... بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى ... وبسيفه أنحى على الهامات

من دونه الابطال في كل الورى من سابق أو لاحق أو آت

وقد نشرنا هذا الكتاب والابيات في (ج ١ م ١١) في معرض الرد على البرنس كايتاني في زعمه أن نجاح النبي (ص) كان في كفاءته من حيث هو سياسي محنك أكثر من نجاحه من حيث هو نبي، وان حنكته وسياسته أفادا أكثر من افادة القرآن. رددنا على صاحب هذا القول وعلى المؤيد الذي نقل كلامه وأقره وعلى الدكتور شميل فيما زعمه من أن النبي (ص) أفضل من حيث كونه رجلا منه من حيث كونه نبيا. وسألنا الله تعالى أن يهديه الى الباقي من مزايا كتابنا ورسولنا (ص) وهو المهم الاعظم المتعلق بأمر الدين والآخرة الذي أشار اليه في البيت الاول وكفر به في البيت الثاني، فقد صرح لنا بأن مراده بلحمة الغايات أمور الآخرة

ان الدكتور شبلي شميل قد اهتدى بالاطلاع على القرآن الحكيم الى مافيه من الحكم الروادع للهوى والشرائع الموافقة لاصول العمران حتى في هذا الزمان. وبالاطلاع على سيرة النبي (ص) الى كونه قد فاق جميع أبطال البشر وعظمائهم — ويدخل فيهم عنده أكابر الانبياء عليهم السلام وكبار الساسة وقواد الحروب وأهل الفصاحة والادب. فلو ان الدكتور تأمل فيما اهتدى اليه من هذين الامرين وكان مؤمنا بالله تعالى لجزم بكونه نبيا مرسلا من عنده عز وجل، لان ما امتاز به كتابه وما امتاز به شخصه على جميع البشر من سابق أو لاحق أو آت انما كان بعد ان بلغ أربعين سنة في الامية بين أهل الشرك والجاهلية فهل يعقل أن تحدث هذه المزايا العلمية العملية الادبية العمرانية الحربية السياسية الاجتماعية لرجل في سن الكهولة دفعة واحدة؟ كلا ان هذا لا يعقل أن يكون الا بوحي وتأييد من الله عز وجل. ولكن كثيرا من الباحثين في مثل هذه المسألة يبحثون فيها من جهة واحدة منصرفين عن سائر الجهات فلا يحيطون بسائر أطراف المسألة. والصوارف عن أمثال هذه المباحث كثيرة أظهرها كون انكار الاديان عندهم من القضايا المسلمات، وكنت أرى ان للدكتور شبلي شميل مانعا قلما يشاركه فيه غيره في بلاده وهو عده الجرأة على التصريح بالتعطيل مزية من المزايا العظيمة التي انفرد بها، وحب الامتياز من غرائز البشر الراسخة فمن رأى نفسه قد انفردت بشيء منه قلما يفكر ويبحث في شيء من شأنه أن يذهب

بما انفرد به . على ان رجال الدين الذين على مذهب أسرته الذي نشأ عليه ثم ارتد عنه قد حكموا بأنه تاب من ردته وعاد قبل الموت الى دينه ومذهبه الاولين ولذلك جنّزوه وصلوا عليه في كنيستهم ودفنوه في مقابرهم ، وجماهير الناس يرتابون في ذلك أو يجزمون بخلافه ويعدون هذا من غرائب تساهل الكاثوليك

كان الدكتور شبلي شميل من دعاة الاشتراكية وهو مستقل برأيه فيها غير مقلد لطائفة من طوائفها ، وكان ماديا في آرائه وأفكاره الا انه كان متحليا بكثير من الاخلاق الحسنة المحمودة التي يضاد بعضها ما تقتضيه الافكار المادية التي غلبت على عقله وخياله، كالرأفة والسخاء والصدق والوفاء والنجدة والمروءة والشجاعة وغير ذلك . وان تحلي بعض المعطلين بالفضائل من أقوى الشبهات على الدين في هذا العصر ، فاننا نسمع كثيرا من المرتابين أو الراسخين في الكفر يقولون أي حاجة للناس في الدين واننا نرى كثيرا من المصلين الصائمين منغمسين في المعاصي والرذائل، بل نرى كثيرا من رؤساء الاديان الرسميين كذابين طماعين أدنياء بخلاء لا يرجى منهم معروف، ونرى فلانا وفلانا مما لادين لهم متحلين بالاخلاق الفاضلة والآداب العالية والسبق الى عمل المعروف وقد أجبت عن هذه الشبهة في المنار غير مرة واتخذت تأبين الدكتور فرصة لبيان ذلك للجمهور

في اليوم المتمم للاربعين من تاريخ وفاته أقام النادي السوري في القاهرة حفلة تأبين للدكتور الذي هو من نوابغ السوريين بلاخلاف أجاب الدعوة اليها مئات من أهل العلم والادب والوجاهة من سكان القاهرة على اختلاف مذاهبهم ونحلهم فغص النادي بهم ، وافتتح الجلسة رئيسها احمد حشمت باشا بخطبة وجيزة أطرى فيها المؤبن اطراء كبيرا. ثم دعي الدكتور يعقوب صروف الى الكلام في علم الدكتور شميل وهو أعلم الناس به وبعلمه فجاء من ذلك بخلاصة جمعت فأوعت . ثم دعيت الى الكلام على أخلاقه فقلت ماخلاصته على ما أتذكر الآن :

« أشكر لادارة النادي السوري اختيارهم اياي للكلام في أخلاق الدكتور شبلي شميل فان الكلام في الاخلاق أحب اليّ لان أثرها في حياة الناس العملية أعظم من أثر العلم، لان العلم يبين طرق العمل، والاخلاق هي التي تبعث عليه وتهدي

الى الغاية منه، فحسن الاخلاق هو الذي يجعل العلم نافعاً وسوء الاخلاق قد يجعله ضاراً، ولذلك شبه حكماؤنا علم فاسد الاخلاق بالسيف في يد المجنون ، وانا نرى مبلغ تأثير ضرر العلم بسوء استعماله في الحرب الاوربية الحاضرة التي كان الموقد لنيرانها بعض الاخلاق المذمومة من الطمع والكبر وحب العلو واستعباد الاقوياء للضعفاء

على ان العمل النافع لا يرتقي الا بالعلم ، وما ساد بعض الامم على بعض الا بالعلم (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وانما تظهر حقيقة المرء وتعرف ترجمته ببيان علمه وأخلاقه وأعماله ، وقد أحسن النادي باختيار العلامة الدكتور صروف للكلام على علم الدكتور شميل فهو أعلم منا بهذه العلوم وبمكان الرجل منها وقد جاء بفصل الخطاب في ذلك

كان الدكتور شميل متحليا بعدة من الاخلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران البشري الا بكثرة المتحلين بها في الامم كالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة ، يعرف له ذلك كل من عرفه ، وكل خلق من هذه الاخلاق له تأثير في أعمال الناس ومعاملاتهم ولا يمكن بيان ذلك بالتفصيل في وقت قصير محدود كوقتنا هذا وانما أشير الى بعض ذلك بالايجاز فأقول :

ان من أضر مفاسد الكذب طمس الحقائق وابطال ثقة الناس بعضهم ببعض فالكذاب لا يوثق بخبره ولا بعلمه ولا برأيه ولا يمكن أن يرتقي قوم فقدت الثقة من بينهم . ومن أكبر بواعث الكذب الجبن ولولا ما أوتي الدكتور شميل من الجرأة والشجاعة لما أمكنه أن يكون صادقاً يقول ما يعتقد وان كان مما ينكره عليه ويكرهه منه أهله وقومه والسواد الاعظم من أهل وطنه ، والشاهد على هذا تصريحه قولا وكتابة بالآراء التي تخالف عقائد هؤلاء الذين يعيش معهم، والمعروف أن الخوف من عاقبة قول الصدق ، هو الذي يحمل الناس على الكذب ، ولذلك يكثر في عهد الاستبداد والظلم ، ولكننا نرى كثيرا من كبراء الحكام ورؤساء الناس في بلاد كثيرة يكذبون على رعاياهم ومرءوسيهم ، فلا يتجرءون على التصريح لهم بما لا يرضيهم ، وان كان التصريح خيرا لهم، وهكذا يعيش كثير من أكابر الناس وأصاغرهم عيشة الكذب والغش والرياء والنفاق لجبنهم وضعف ملكة الاستقلال

فيهم ، ولم يكن شميل مرائيا ولا منافقا بل كان مستقلا شجاعا يقول ما يعتقده حقا وصوابا غير هياب ولا وجل

وكان على جرأته وشدته في آرائه رقيق القلب سخي النفس ، فكان اذا دعي الى معالجة فقير يختف اليه مرتاحا ويعالجه مجانا وربما اشترى له الدواء ، وزاده ثمن الغذاء ، على انه لم يكن ذا فضل من المال ، واننا نرى كثيرا من الاغنياء البخلاء ، يحتالون على أكل أموال الناس حتى الفقراء والادباء ، ونحن أصحاب الصحف قد جربنا جميع أصناف الناس فوجدنا في كل صنف منهم (حتى علماء الدين وكبار الحكام من قضاة وغيرهم) اناسا يتعمدون هضم الحق فيعدون جانبي الصحيفة ويمطلون ، حتى تمر الشهور والسنون ، ولا يصدقون ولا يفون . فهل يمكن ان ترتقي أمة الا بزوال هؤلاء أو زوال الغصة من أيديهم ؟ ان السخي لا يمنع حق أحد ، لان من يعطي الناس من ماله ما ليس لهم ، لا يعقل ان يمسك عنهم ما هو لهم ، وفي مثل شائع بين كثير من المسلمين : ان الذي يزكي لا يسرق .

وههنا مسألة مهمة تخفى على كثير من الناس ، وهي ان اكثر مكارم الاخلاق لا تنطبع في النفس الا بالتربية الدينية ، وتكون عرضة للفساد بالتعطيل والافكار المادية ، فكيف اتصف الدكتور شميل بتلك الاخلاق الحسنة مع كونه كان ماديا معطلا ؟ يحتج بهذه الشبهة بعض الملاحدة على عدم الحاجة الى الدين قائلين إننا نرى فلانا وفلانا ممن مرقوا من الدين أفضل أخلاقا وآدابا من المتدينين الذين نرى من رؤسائهم وعلمائهم من فشا فيهم الكذب والطمع والدناءة والبخل والجبن والرياء والنفاق ، والجواب عن هذه الشبهة ان فاسدي الاخلاق من المنسوبين الى الدين لم يتربوا تربية دينية صحيحة بل لم يكن لهم حظ من الدين الا الاسم أو نحو بعض العبادات من غير فهم لحكمها ولا قيام بحقها ، وان أولئك المعطلين الحسني الاخلاق قد تربوا تربية دينية تكونت بها أخلاقهم الفاضلة ثم طرأت عليهم فكرة التعطيل في الكبر فلم تطمس ماطبع في النفس من أخلاقهم ، فقد حدثني الدكتور شميل عن نفسه انه كان في نشأته الاولى مبالغا في التدين مواظبا على العبادة ، وان فكرة التعطيل ماطرأت عليه الا بعد سفره الى أوربة ، فقد لقي في فرنسة عالما ماديا قال له كلمة هدمت عقيدته الدينية

هدماء ولم يذكر لي تلك الكلمة. وأقول انها لم تهدم تأثير التربية الدينية في نفسه، ولا ماورثه من أخلاق أهل بيته ، ولا عجب فقد ثبت في العلم الحديث ان لكل نوع من المدركات الفكرية والوجدانية مركزا خاصا في دماغ الانسان ، وما كل فكر يأخذه المرء بالتسليم يؤثر في أخلاقه وآدابه العملية بل لا بد في هذا التأثير من التربية العملية أو كونه عقيدة يجزم صاحبها عقلا ووجدانا بأن العمل بمقتضاها سعادة، وتركها شقاوة لا تعدلها شقاوة ، وفكرة الإلحاد ليست كذلك ، فهي قد كانت محصورة في مركز صغير من دماغ الدكتور شميل له صلة بلسانه ولا سلطان له على قلبه ، ولذلك كانت تظهر أحيانا في كلامه ولكنها لم تنزع من نفسه ما تربى عليه في بيته من الاخلاق الدينية كالصدق والرحمة والسخاء وغير ذلك »

ثم ذكرت في التأبين رأي الدكتور في الاسلام وفي نبينا عليه الصلاة والسلام وقرأت كتابه وأبياته في ذلك وقد تقدم ذكرها في هذه الترجمة

هذا ما أتذكره من كلامي في أخلاق الدكتور شميل لم أترك منه شيئا ولكنني زدت مسألة الشبهة الاخيرة إيضاحا لانني رأيت بعض الناس لم يفهمها حتى قال لي بعضهم ان التأبين يقصد به المدح وأنت ذممت الرجل وجعلته مجنونا ، وانما أخذ جعلي إياه مجنونا من قولي ان فكرة الكفر والالحاد قد طرأت على دماغه في الكبر، وقد عبرت بكلمة المخ بدل الدماغ ففهم ذلك الرجل وغيره من ذلك ما فهموا ولغطوا به

ثم دعي الدكتور كحيل الى الكلام في سيرة شميل الطبية فقرأ خطبة طويلة بالفرنسية بين فيها ذلك . ودعي محمد حافظ بك ابراهيم فأنشد قصيدة بليغة استعاد الجمهور كثيرا من أبياتها مرارا. ودعي أيضا كل من انطون جميل الاديب المشهور وحسن افندي الشريف وهو شاب من أبيار وأميل افندي زيدان صاحب الهلال فألقى كل منهما خطبة فصيحة أطرى فيها الفقيد إطراء الشاب المتلئ اعجابا بآرائه وأفكاره ونشاطه وهمته ، فدل ذلك على تأثير الرجل في أنفس النابتة الجديدة . ثم قام ابن أخيه رشيد بك شميل صاحب جريدة البصير فشكر للنادي السوري وللمؤبنين عملهم ، وانفضت الحفلة